الزمخشري والشعوبية

للدكتورة بهيجة باقر الحسني
كلية الشريعة - جامعة بغداد

حياته :[1]

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي الملقب بجار الله ، قال الزمخشري :[2]

---

(١) ترجمته في أزهارالرياض ٢٨٢/٣ ، وارشاد اللبيب ١٤٧/٧ ، وانباه الرواة على أنباه النحاة ٢٦٥/٣ ، الأعلام ٥٥/٨ ، وبغية الوعاة : ٣٨٨/٣٨٩ ، وتاريخ ابن الأثير ٨/٩ ، وتاريخ الاسلام للذهبي (وفيات ٥٣٨) ، وتاريخ أبي الفداء ١٦/٣ ، وتاريخ ابن كثير ٢١٩/١٢ ، وجريدة العراق الأحد ١٨ كانون الثاني ١٩٨٧ ، وروضات الجنات ٦٨٤/٦٨١ ، وشذرات الذهب ١٨/٤ وطبقات ابن قاضي شهبة ٢٤١/٢ ، وطبقات المفسرين للسيوطي : ٤١ ، والعقد الثمين ٢٩/٢ ، وكشف الظنون ٧٤ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٦١٦ ، ٧٨٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ١٠٠٩ ، ١٠٥٦ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٥ ، ١٢١٧ ، ١٣٢٦ ، ١٣٩٨ ، ١٤٢٧ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٨ ، ١٥٨٤ ، ١٦٧٤ ، ١٧٣٤ ، ١٧٧٤ ، ١٧٩١ ، ١٧٩٨ ، ١٨٧٧ ، ١٨٩٠ ، ١٩٥٥ ، ١٩٧٨ ، واللباب في تهذيب الانساب ٥٠٦/٢ . ومرآة الجنان ٢٦٩/٣ ، ومعجم البلدان ٣٩٩/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ ، ونزهة الالباء ٤٦٩ ، ومفتاح السعادة ٤٣١/١ ، ومجلة المجمع العلمي العربي ١٣٥/٥ ، وفيات الأعيان تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٢٥٤/٤ ومقدمة كتاب المحاجاة بالمسائل النحوية .

The Encyclopedia of Islam, 4.1205 Geschicht der Arabixhen Litteretur, 1.289. Sup. 1.54, 172, 507, 513.

(٢) ديوان الأدب ورقة ٦ .

فجاورت ربي وهو خير مجاور لدى بيته البيت المحرّم عاكفا
أقمت باذن الله خمسا كواملا وصادفت سبعا بالمعرف واقفا
ظللت مع العمار معتمراً له وبت مع الطوّاف بالبيت طائفا

ولد جار الله يوم الاربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م بزمخشر[1] من قرى خوارزم في عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه الذي ازدهرت في عهده التجارة والصناعة ، وازدهرت الآداب والفنون وكان يعاونه في إدارة شؤون المملكة نظام الملك أقدر وزراء الإسلام طرا[2] .

طلب جار الله العلم وهو صغير ، ورحل لأجله ، وبسببه سقطت رجله فكان يمشي في جاون خشب كما يذكر ابن خلكان :[3] انه «كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق ، فسقطت منه رجله ، وانه كان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك ، خوفاً من أن يظن من لم يعلم صورة الحال انها قطعت لريبة» .

---

(١) ذكرها المقدسي في كتاب «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ٢٨٩» ، قال : «وزمخشر صغيرة ، عليها حصن وخندق ومحبس وأبواب محددة ، والجسور ترتفع كل ليلة ، والجادة تشق البلد ، والجامع ظريف بطرف السوق» واحسن ما قيل فيها ابيات الامير أبي الحسن علي بن حمزة العلوي :

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها دارا فداء زمخشرا
واحر بان تزهى زمخشر بامرىء اذا عد في اسد الشرى زمخ الشرى
فلولاه ما طن البلاد بذكرها ولا طار فيها منجداً ومغوراً
فليس ثناها بالعراق وأهله باعرف منه في الحجاز واشهرا

«أزهار الرياض : ٣/٣٨٥» .

(٢) الكامل لابن الاثير ١٠/٧٢ .
(٣) وفيات الاعيان ٢/١١٩ .

تلمذ الزمخشري على أبي مضر محمود بن جرير الضبي الاصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٧هـ) الذي يلقب بفريد العصر ، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو وكان يضرب به المثل في الفضائل ، وقد أقام في خوارزم مدة ، فانتفع الناس بعلومه ، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها[١] .

وكان الزمخشري محباً لاستاذه ، وفياً له ، معترفاً بفضله ، فلما توفي رثاه بقصيدة قال فيها :[٢]

فقلت لطبعي : هات كل ذخيرة ... فمن أجله ما زلت أدّخر الذخرا
وأبرزْ كريمات القوافي وغُرِّها ... فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا
فلهفي على ذاك اللسان وَحَزِّهِ ... مفاصِلَ أعيا حَزُّها القُضُبَ البترا
ولهفي على ألفاظه العذبة التي ... كأن زلال المزن قد مازج الخمرا
ولهفي على تلك المعاني كأنها ... منافث سحر يسحر الفِطَنَ الحبرا
فذاك «فريد العصر» حقّا فلن ترى ... عيونُهم من بعده مثلَه حُـرا

وسمع الزمخشري الحديث عن شيخ الاسلام أبي منصور الحارثي ومن ابي سعد الشقاني[٣] ، ومن أبي الخطاب ناصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر[٤] كما أخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري .

وتخبرنا كتب التراجم انه قرأ في مكة كتاب سيبويه على عبد الله بن طلحة بن محمد بن عبد الله اليابري المتوفى سنة ٥١٨هـ[٥] .

---

(١) ارشاد الاريب : ١٤٧/٧ ، وفيات الأعيان : ١١٩/٢ ، بغية الوعاة : ٣٨٨ .
(٢) القصيدة في ديوان الادب ورقة ٥٦ ، عدة أبياتها احدى وستون بيتا مطلعها :
ايا طالب الدنيا ويا تارك الاخرى ... ستعلم بعد الموت أيهما أحرى
(٣) ارشاد الاريب : ١٤٧/٧ .
(٤) طبقات المفسرين : ٤١ .
(٥) طبقات المفسرين : ١٥ ، ازهار الرياض ٧٦/٣ ، بغية الوعاة : ٢٨٤ .

ومما يجب ذكره : ان الزمخشري نشأ متحمساً للاعتزال مجاهراً به ، فقد كان إذا قصد صاحباً له ، واستأذن عليه في الدخول ، يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب[1] .

وفي سنة ثنتي عشرة بعد الخمس مائة مرض الزمخشري مرضة شديدة سماها بـ «المرضة الناهكة» فعاهد ربه إن شفي من مرضته تلك أن لايطأ عتبة السلطان ولا يواصل بخدمته أذياله ، وان يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، وأن يعف عن ارتزاق عطياتهم وافتراض صلاتهم مرسوماً وإدراراً وتسويفاً ،ويجدّ في إسقاط اسمه من الديوان ومحوه ، وإن يعتصم بحبل التوكل ويتمسك ، ويتبتل إلى ربه ويتنسك ، وأن يدرس من العلوم ما هو مُجْدٍ كعلم القرآآت والحديث والفقه .[2]

توجه الزمخشري في سنة ست عشرة بعد الخمس مائة الى بيت الله الحرام ليقضي البقية الباقية من عمره بجوار بيت الله .

وهناك في مكة رحب به الأمير أبو الحسن عليّ (بضم العين وفتح اللام) ابن عيسى بن حمزة بن وهاس . كان شريفاً جليلاً وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة في النثر والنظم ، ومن شعره ما قاله في الزمخشري :[3]

لقد شجني في أم رأسيَ عـزمُه ... فأصبحت من عزم الإمام أميما
تمنيت لـو لم ألقـه وجهلتـه ... ولم يخش قلبي بالفراق كلوما
فديت امرءاً يحشو الفؤاد فراقه ... كلومـا ولقيـاه حشتـه علومـا
وكائن رأينا من أولي العلم والتقى ... رجالا أناخوا بالحجـاز قرومـا
فأخمد «أستاذ الزمان» ضياءهم ... وكـان وكانـوا شارقـاً ونجومـا

---

(١) وفيات الاعيان : ٤/٢٥٥ .

(٢) انظر مقدمة المقامات .

(٣) انظر (ارشاد الاريب ٥/٢٨٧ ، انباه الرواة ٣/٢٩٠ ، الجبال والا مكنة والمياه ١٥ ، تاج العروس ٣/٢٤٣ ، ازهار الرياض : ٣/٢٩٢) .

اتجه الزمخشري الى التأليف والتصنيف والتدريس وتحلّق حوله فتيان مكة وقصده طلّاب العلم من ارجاء العالم الاسلامي يأخذون عنه ، وأكثر الزمخشري نفسه من الفخر بمجالسه تلك فقال :[1]

وسميت بين العرب والعجم رحلة ... اليّ يزجون المطيّ عواسفا
ألم تر أنّي ـ حيثما كنت ـ كعبةٌ ... يحفّون بي كالطائفين طوائفا
فشرقيهم يهوي الى النور قابسا ... وغربيهم يسعى الى البحر غارفا
وأصبحت ممدوحا لكل ممدح ... ترى مجلس الامجاد لي متراصفا
ودونك ديوان المدايح فاطلع ... تجد ناظما فيّ الثناء وواصفا

وعلى الرغم من مجاورة الزمخشري لبيت الله ، وما تمتع به فيه من الهدوء النفسي ، إلا أن ذلك كله لم ينسه الحنين الى وطنه والرغبة في العودة اليه . ويترك الزمخشري مكة عائداً إلى وطنه . وما أن تحرك الركب حتى ندم على فعلته تلك ، وفترت همته ، وضعف في نفسه شوق العودة الى الوطن ، فيصل جار الله إلى وطنه فاتر الهمة حانّاً إلى الحجاز .

ولم يستطع الزمخشري صبراً فيعود إلى الحجاز ، وفي طريقه إليه يمرّ بالعراق فيزوره الشريف أبو السعادات هبة الله بن الشجري مهنئاً له بقدومه ، فلما جلس إليه بهره علم الزمخشري وأخلاقه فأنشد ابن الشجري متمثلاً :

كانت مساءلة الركبان تخبرني ... عن أحمد بن دؤاد أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأي بصري

وأنشده أيضاً :

و مستكبر الأخبار قبل لقائه ... فلما التقينا صَغُرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

---

(١) ديوان الادب ورقة ٧٩ .

فلما فرغ من كلامه شكر الزمخشريُّ الشريفَ ، وعظّمه وتصاغر له وقال :

إن زيد الخيل دخل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحين بصر بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رفع صوته بالشهادتين ، فقال له الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا زيد الخيل ! كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلاّ أنت ، فإنك فوق ما وصفت . وكذلك الشريف . ثم دعا له وأثنى عليه .[1]

وينقل الزمخشري كتبه كلها إلى مشهد أبي حنيفة ولم يبق معه إلاّ كتاب الله المبين ويقول الزمخشري :[2]

سأبذل معروفي ومن كان عارفاً ... سماحة منع العرف أسدى العوارفا
ووفقني حتى وقفت نفائسي ... وأعلاق اسفاري فابرحت واقفا
على مشهد النعمان نوّر قبره ... كما نوّر الاسلام مالك سالفا

فيشد الزمخشري الرحال الى مكة ، ويعيش عيشة الزهاد المتقشفين منتظراً داعي الله صباح مساء ، قال[3] :

قَرُبَ الرحيلُ الى ديار الآخرة ... فاجعل إلهي خيرَ عمري آخره
وارحم مبيتي في القبور ووحدتي ... وارحم عظامي حين تبقى ناخره
فأنا المسيكين الذي أيامه ... ولت بأوزار غدت متواتره
فلئن رحمت فأنت أكرم راحِمٍ ... فبحار جودك يا إلهي زاخره

---

(١) ارشاد الاريب ١٤٧/٧ ، نزهة الالباء : ٢٩١ .
(٢) ديوان الادب : ورقة ٨٠ .
(٣) لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ : ٣٣٩ .

ثم عاد الزمخشري الى وطنه حيث وافاه أجله بجرجانية خوارزم ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤م ، وأوصى أن تكتب على لوح قبره الأبيات الآتية[١] :

يامن يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمح في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تـاب من فرطـاته ماكان منـه في الزمـان الأول

ونختم الكلام بقول القفطي[٢] :

«كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه ، وأكثرهم انساً واطلاعاً عـلى كتبهـا ، وبه ختم فضلاؤهم» .

الشعوبية

إن بداية الشعوبية محاطة بالغموض لأنها بدأت عملها في جوّ من الكتمان والحذر لذلك يتعذر علينا تحديد البداية ، ولكنها ظهرت في مطلع القرن الثاني للهجرة وهي تمثل جانباً من محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة ، فهي تتكشف عن صراع ثقافي ديني واسع*. فالشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى فضلاً لهم على غيرهم ، وهم فئات مختلفة من شعوب متعددة تحاول زعزعة السلطان العربي ، أو اضعاف الاسلام وإرباكه ، وكذلك لصَدِّ تيار الثقافة العربية الاسلامية ، ولنسف التراث العربي الاسلامي ، وقد حاولت بث الوعي السياسي والديني بين صفوفها واحياء تراثها الثقافي .

---

(١) وفيات الاعيان ٤/٢٥٩ ، وانظر بحثنا «القصيدة البعوضية» مجلة الأستاذ ، سنة ١٩٦٧ .

(٢) انباه الرواة ٣/٢٧٠ .

(*) الجذورالتاريخية للشعوبية ص ٩ .

فقد ظهرت بين شاعر يتغنى بأمجاد ساسان وحضارتها ، وزنديق يبشر بالمانوية[1] والزرادشتية[2] والمزدكية[3] .

---

(١) اسس المانوية ماني بن فتق بن بابك وكان يزعم انه نبي ، وكان ظهور ماني زمن الملك سابور بن اردشير الذي تولى الملك سنة ٢٤٢ ميلادية (الفهرست ٤٧٠) وقال : «ان مبدأ العالم كونان احداهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل عن الآخر . وذلك الكون غير المجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما «الفهرست ص ٤٧٣ . وثبت ماني في ديانته فكرة الحلول . ومن معتقدات المانوية «انهم لا يرون الذبيحة ولا يأكلون اللحم ولا شيئاً من الحيوانات» نظم الجوهر ص ١٤٦ . ويحرمون من الماء الطهور ولا يقرون الغسل به . كما وضع ماني عبادات منها الصلاة على أوقات ، تبدأ الصلاة الاولى منها عند الزوال والثانية بين الزوال وغروب الشمس ثم صلاة المغرب بعد غروب الشمس ثم صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات وكذلك فرض ماني صياماً امده ستة وثلاثون يوماً (الفهرست ص ٤٨٠) ولقد اضطهد الملوك الساسانيون المانوية اضطهاداً شديداً فانه لما اظهر ماني ديانته ايام الملك سابور طلبه ولكن لم يظفر به ، وعندما تولى هرمز بن سابور الملك القى القبض على ماني وجمع الناس وقال فيهم : هذا الرجل اعلن ضرورة قتل الناس لخلاص العالم ، ولهذا فمن الضرورة أن أبدأ بقتله من أجل خلاص العالم منه ، فقتله وعلّق جسده على باب مدينة جند سابور التي تعرف الى الآن ببوابة ماني (الاخبار الطوال ص ٤٩) .

(٢) والزرادشتية نسبة الى زرادشت ابن اسفيخان الذي ظهر أيام الملك بشتاست وادعى النبوة ووضع أسس الديانة الزرادشتية (مروج الذهب ج١ ص ١٤٢) في كتاب الافستا الذي في يد المجوس . وامست الزرادشتية الديانة الرسمية أيام الساسانيين واستمرت حتى الفتح الاسلامي .

والزرادشتية من الديانات الثنوية «اثبتوا اصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر ، ويسمون احداهما النور والثاني الظلمة» الملل والنحل ج ٢ ص ٧٣ .

وكانت الزرادشتية «يستحلون زواج الامهات وقالوا الابن احرى بتسكين شهوة أمه واذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة» (تلبيس ابليس ص ٧٣) .

(٣) والمزدكية وضع أسسها مزدك الذي ظهر في أيام الملك قباذ بن فيروز وذلك في أواخر القرن الخامس الميلادي (الفهرسية ص ٤٩٣) وهي من العقائد الثنوية لانها اعتبرت (النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق ، والنور عالم حساس والظلام جاهل اعمى (الملل والنحل ج ١ ص ٨٦) .

ومن المألوف أن تنسب حركات الموالي والأعاجم إلى أن السلطان العربي في العصر الأموي اضطدهم واحتقرهم ، وأنه ارهقهم بالضرائب وأبعدهم عن الادارة ، وإلى حرمانهم من الوظائف وفرض الجزية عليهم كما فعل الحجاج في العراق وإلى عدم اعطائهم الأعطيات في الجيش كالعرب ، وسار على سياسة العصبية للعرب واحتقار من سواهم ونبذهم اجتماعياً .

لقد وجدت الدعوة العباسية تأييداً أكيداً من العجم وبينهم الموالي إذ أن هدفهم كان تحقيق المساواة الاجتماعية أو الاشتراك في الادارة لأن العباسيين حققوا ذلك الى درجة بعيدة وواسعة .

ومن أوائل من أعلن شعوبيته اسماعيل بن يسار في الفترة الأموية الأخيرة يقول مفتخراً بالفرس :

رب خـال متـوج لي وعمّ ... ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمي الفوارس بالفر ... س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أمام علينا ... واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي أن جهلت عنا وعنكم ... كيف كنّا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسون ... سفاها بناتكم في التراب[1]

ثم أعلن بجلاء عن نزعته الشعوبية في قصيدة أنشدها أمام هشام بن عبد الملك يفخر فيها بالعجم ، جاء فيها :

من مثل كسرى وسابور الجنود معا ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إنْ زحفوا ... وهم أذلوا ملوك الترك والروم

= وحرمت المزدكية اكل لحم الحيوان كالمانوية . (الملل والنحل ج ١ ص ٨٦) ودعا مزدك بان (تكون النساء والاموال شركة بين الناس كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ) (الملل والنحل ج ١ ص ٨٦) .

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص ٢٥ .

يمشون في حلق الماذى سابغةً مشي الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك أن تسألني تنبي بأن لنا جرثومة قهرت عزّ الجراثيم[1]

وقد أدت هذه النزعة إلى التنكر به ومطاردته ، وقد جاء في الأغاني : «وكان ابن يسار مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً» .[2]

ازداد نشاط الغلاة في أواخر العصر الأموي ، وكانوا يتمسكون بتراثهم الديني المجوسي ، ويتسترون باسم الاسلام ، وقد انتبه البعض الى دورهم الخطر وإلى وجهتهم المعادية للعروبة والإسلام حين عظم دورهم في الدعوة العباسية ، فهذا نصر بن سيار يحذر القبائل العربية في خراسان من اتباع الدعوة العباسية ، ويقول :

أبلغ ربيعة في مرو واخوتها فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم ممن تأشب لا دين ولا حسب
قوما يدينون دينا ما سمعت به عن الرسول ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم فإن دينهم أن تقتل العرب[3]

وكان للدعوة العباسية أثرها في تنشيط الوعي القومي بين الفرس وتهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية الفارسية من خرمية ومانوية وزردشتية .

وحملت الخرمية راية الثورة المسلحة وانتشرت دعوتها في بلاد فارس ، وكانت تمثل في الحقل الاجتماعي اشتراكية مزدك ، وفي الحقل الديني

---

(١) المصدر السابق والصفحة .
(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .
(٣) الاخبار الطوال ص ٢٦ .

والسياسي ضرب الاسلام وإعادة السلطان إلى العجم ، وقد تستر الخرمية أحياناً ، وحاولوا أن يتخذوا من بعض مبادىء الغلو سبيلا للظهور بمظهر إسلامي فنقلوا الإمامة من العباسيين إلى أبي مسلم الخراساني ، وهذا يبدو في ثورة اسحاق الترك والمقنع مثلاً . ويبدو لي ـ الدكتور عبد العزيز الدوري ـ أن الوعي الفارسي وجد في أبي مسلم رمز توثب ، فاعتبره بعضهم خليفة زرادشت ، واعتبره آخرون المنقذ الذي حل فيه جزء الهي كما فعل المبيضة[1].

وبذل الكتّاب والأدباء والشعراء من الشعوبيين كل الطرق لبث الثقافة الفارسية ، وحاولوا بث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسيم العباسية ، مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية ، قال ابن قتيبة : «وأعاذنا الله من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبية ، فإنها بفرط الحسد ونغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبهت بالكذب وتكابر بالعصيان»[2].

واندفع الشعوبيون في الكتابة في مثالب العرب وفي الحط منها ، فهذا أبو نواس يتذكر تراث الساسانيين ، ويقول :

مسارحها الغربي من نهر صرصر ... فقطربل فالصالحية فالصفر
تراث أنو شروان كسرى ولم تكن ... مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
قصدت بها ليلى وليل ابن حرّة ... له حسب زاك وليس له وفر[3]

ولقد سخر من العرب وتهكم بهم ، فهو يقول :

عاج الشقي على رسم يسائله ... وعجت أسأل عن خمارة البلد

(١) الجذور التاريخية للشعوبية ص ٣٢ .
(٢) الجذور التاريخية للشعوبية ص ٥١ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٥ .

يبكي على طلل الماضين من أسد ... لا درّ درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهم ... ليس الأعارب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر ... ولا صفا قلب من يصفو الى وتد[1]

ومن شعره أيضاً يذم به العرب ويفخر بالفرس :

وإذا أعاشر عصبة عربية ... بدرت إلى ذكر الفخار تميم
وبنو الأعاجم لا أحاذر منهُمُ ... شراً فمنطق شرهم محسوم
لا يبذخون على النديم إذا انتشوا ... ولهم إذا العرب اعتدت تسليم[2]

وهذا بشار بن برد العقيلي بالولاء وأصله من طخارستان اتهم بالزندقة وقتل بسببها[3] قال في العرب والتفاخر بالفرس :

هل من رسول مخبر عني جميع العرب
من كان حيّاً منهُمُ ومن ثوى في الترب
بأنني ذو حسب عال على ذي حسب
جدي الذي أسمو به كسرى وساسان أبي
وقيصر خالي إذا عددت يوماً نسبي
إنّا ملوك لم نزل من سالفات الحقب
حتى استلمنا ملكها بملكنا المستلب
حتى رددنا الملك في أهل النبي العربي
من الذي عاد الهدى والدين لم يستلب[4]

وقال مفتخراً بأصله الفارسي :

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٤٦ .
(٢) الشعوبية حركة مضادة للاسلام والأمة العربية ص ٧٣ .
(٣) وفيات الاعيان ١/٢٤٥ .
(٤) ديوان بشار بن برد ١/٣٧٧ .

أنا ابن الأكرمين أبا وأما تنازعني المرازب عن طخار
تفاخر يا ابن راعية وراعي بني الأحرار حسبك من خسار[1]

وقال متوعداً أبا جعفر المنصور لقتله أبا مسلم الخراساني :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عمّا قليل بسالم
فإنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الاعاجم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما اجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادرا في طريقهم ولا تنقضي اشباه تلك النقائم[2]

وهذا المتوكلي نرى له وجهة قومية تتغنى بالمجد الماضي الذي يحلم بإعادته فهو يقول :

أنا ابن الاكارم من نسل جم وحائز أرث ملوك العجم
ومحيي الذي باد من عزّهم وعفى عليه طوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة فمن نام عن حقهم لم أنم

ثم يقول :

معي علم الكابيان الذي به ارتجي أن أسود الأمم
فقل لبني هاشم أجمعين هلموا الى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرماح طعنا وضربا بسيف خذم
فعودوا الى أرضكم بالحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم
فإني سأعلو سرير الملوك بحد الحسام وحرف القلم[3]

وهذا الصغدي ابو يعقوب اسحق بن حسان بن فوهي الخريمي فارسي الأصل ولد في بلاد الصغد ومنها رحل إلى بغداد واختار صحبة الزنادقة المجان[4] فهو يقول :

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٢٩ .
(٢) الصراع بين العرب والموالي ص ٩١ .
(٣) الجذور التاريخية للشعوبية ٦٥ .
(٤) تاريخ بغداد ٦/٣٢٦ .

وناديت من مرو وبلخ فوارسا لهم حسب في الأكرمين حسيب
فيا حسرتا لا دار قومي قريبة فيكثر منهم ناصري ويطيب
وأن أبي ساسان كسرى بن هرمز وخاقان لي لو تعلمين نسيب
ملكنا رقاب الناس في الشرق كلهم لنا تابع طوع القياد جنيب
نسومكُمُ خسفا ونقضي عليكُمُ بما شاء منّا مخطىء ومصيب[1]

وقال الصغدي :

أبا الصغد بأس إذ تعيرني جمل سفاها ومن أخلاق جارتنا الجهل
هم فاعلموا أصل الذي فيه منيتي على كل فرع في التراب له أصل
إذا أنت لم تحم القديم بحادث من المجد لم ينفعك ما كان من قبل[2]

واستمع الى علان الشعوبي الوراق يقول :

ان لي فخراً مباءته في قرار النجم مأهول
ورجال شربهم غدق هم لما حازوا مباذيل
كسرويات أبوّتنا غرر زهر مقاويل[3]

وهذا عبد الله طاهر بن الحسين يقول في قصيدة يذم العرب ويفخر بالفرس :

اقصري عمّا طمحت له ففراغي عنك مشغول
سائلي عمّن تسائلني قد يرد الخبر مسؤول
أنا من تعرف نسبته سلفي الغر البهاليل
سل بهم تنبيك نجدتهم مشرفيات معاقيل
وأبي من لاكفاء له من يسامي مجده قولوا

(١) الشعر والشعراء ٢/٧٣١ .
(٢) المصدر السابق ٢/٧٣٥ .
(٣) الجذور التاريخية للشعوبية ص ٦٤ .

سـل بهم والخيل ساهمة حوله جرد أبابيل
أبطن المخلوع كلكله وموالية المقاويل
فتوى والترب مضجعه غال عنه ملكه غول
قاد جيشا نحو بابله ضاق عنه العرض والطول
من خراسان مضى معهم كليوث ضمها غيل[1]

جاء في «الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية»:[2] وقد أسهم الشعراء العرب في المعركة ضد الشعوبية وكان لهم دور كبير في الرد عليها ، فإنه لما وقف الشاعر عبد الله بن الحر الجعفي على خطر حركة المختار أنشد في تصويرها قائلاً :

وما ترك الكذاب من جل مالنا ولا المرء من همدان غير شريد
أفي الحق ان يحتاج مالي كله وتأمن عندي ضيعة ابن سعيد

وأنشد أعشى همدان في هجاء المختار :

فقتل من أشرافنا في محالهم عصائب منهم أردفت بعصائب
فكم من كمين قد أبادت سيوفهم الى الله أشكو رزء تلك المصائب
يقتلنا المختار من كل غائط فيالك دهر مرصد بالعجائب[3]

وكتب نصر بن يسار الى مروان الثاني يخبره خطر الشعوبية على الدولة الاسلامية ، فقال :

أرى بين الرماد وميض جمر فأحْجِ بأن يكون له ضرام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام ؟
فإن يقظت فذاك بقاء ملك وإن رقدت فإني لا ألام
فإن يك أصبحوا وثووا نياما فقل قوموا فقد حان القيام[4]

---

(١) العقد الفريد : ٢/١٩٨ .
(٢) ص ١٩٢ .
(٣) الاخبار الطوال : ٢٩٧ .
(٤) الاخبار الطوال ص ٣٥٧ .

وقال أحد الشعراء العرب في ذم الهيثم بن عدي الذي عرف عنه ذم العرب :

يا هيثم بن عدي لست للعرب ولست من طيء إلا على شغب
إذا نسبت عديا في بني ثعل فقدم الدال قبل العين في النسب[1]

وقال شاعر آخر في هجاء الهيثم بن عدي :

يا ابن الخبيثة من اهجو فأفضحه إذا هجوت وما تنعي إلى أحد[2]

ولما شبّه الزنديق يزدان بن باذان حجاج بيت الله عند مناسكهم بقوله : «ما أشبههم إلّا ببقر تدوس البيدر» . ردّ عليه الشاعر العلاء بن الحداد الأعمى مستثيرا الخليفة موسى الهادي عليه ، فقال :

أيا أمين الله في خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر يشبّه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا جمرا تدوس البر والدوسر[3]

وحين افتخر عبد الله بن طاهر بن الحسين بأبيه على قتل الأمين رد عليه الشاعر العربي محمد بن يزيد الأموي ، فقال :

لا يرعك القال والقيل كل ما بلغت تضليل
يا ابن بيت النار موقدها ما لحاذيه سراويل
من حسين من أبوك ومن مصعب غالتكم غول
نسب من الفخر مؤتشب وأبواب أراذيل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مطلول[4]

---

(١) ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ٢٦٤/٧ .
(٢) المصدر السابق ٢٦٤/٧ .
(٣) ضحى الاسلام ٦٧/١ .
(٤) الفرج بعد الشدة ٦٦/١ .

وهناك قصائد كثيرة في رد العرب للشعوبية تجدها في كتب التواريخ ودووواين الشعراء وكتب الأدب العربي .

ومما قالته الشعوبية «للأمم كلها من الأعاجم ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة وبدائع من الأدوات والصناعات ، ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلّا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم .[1]

وقالت الشعوبية ان العرب مجموعة قبائل لا رابطة بينهم وليس لهم من الحضارة نصيب كالفرس والروم وأنهم ينتقلون من مكان الى آخر وأساليب قتالهم الحربية كانت بسيطة .

وقد ردّ أنصار العرب بقولهم «فهم أقوى الناس همما وأشدهم أحلاماً وأصحهم أجساماً وأعزهم جاراً وأحماهم ذماراً ، وأجودهم فطناً لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء .[2]

وأدعت الشعوبية ان اسحاق أبو العجم ، وأن أمه سارة حرة ، بينما نجد اسماعيل أبا العرب وأمه هاجر وهي أمة ، وسموا العجم «بني الأحرار» والعرب «بني اللخناء» بضوء هذا الادعاء قال شاعرهم :

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنها لبني الاحرار أوطان
أرض تبنى بها كسرى مناسكه فما بها من بني اللخناء انسان[3]

وهاجمت الشعوبية اللغة العربية حتى أنهم جوزوا الصلاة بالفارسية، وأثار هذا الهجوم العرب وبعض المسلمين من غير العرب لأن العربية لغة القرآن ولأنها اللغة العامة للثقافة خلال عصور .

---

(١) العقد الفريد ٣/٤٠٥ .
(٢) مروج الذهب ٣/٢٤٤.
(٣) الجذور التاريخية للشعوبية : ٦٩ .

انبرى الجاحظ والثعالبي وغيرهما للدفاع عن اللغة العربية وإظهار محاسنها واعتبروها أشرف اللغات وأسناها .

لقد بذل الكتّاب والأدباء من الشعوبيين كل سبيل لبعث الثقافة الفارسية وحاولوا بث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسيم العباسية ، هذا مع تقليل شأن الثقافة العربية الإسلامية والاستهانة بها . وكان موقفهم يستند إلى العصبية الجامحة لا إلى الادراك .

واتخذ نشاط هؤلاء سبلا مختلفة ، منها اكثارهم من الترجمة عن الفارسية في موضوعات تتصل بصميم الذات الفارسية كالأدب والتاريخ والتقاليد والمثل . وقد شهد العصر العباسي الأول حركة ترجمة واسعة عن الفارسية ، وهي مستقلة عن حركة الترجمة التي تبناها الخلفاء ، ومن أمثلة هذه الترجمات (خداينامه) أو سير الملوك (ملوك الفرس) ، وهو كتاب ينطوي على كثير من الأساطير والمواعظ والتمجيد ويغلب عليه عنصر القصة والاسطورة . ونظراً لخطورته لدى الفرس فإننا نسمع عن ثمانية صور لـ (خداينامه) بعضها مترجم والبعض الآخر مؤلف ومترجم ، ومنها (الآيين نامه) أو المراسيم والتقاليد الساسانية وكتاب (مزدك) وهو يتضمن أدباً ومثلاً أخلاقية مجوسية لا تأتلف والمفاهيم الاسلامية ، وقد ترجمه ابن المقفع . كما أعد أبان بن عبد الحميد اللاحقي ترجمة أخرى له . ومنها كتاب (التاج) في سيرة أنوشروان ، وكتاب (كليله ودمنه) الذي تصرف إبن المقفع في ترجمته وأضاف إليه بابا (باب برزويه) للترويج للمانوية كما أوضح البيروني . ومنها كتاب سيرة الفرس المعروف بـ(اختيار نامه) نقله اسحق بن يزيد . هذا وترجمت بعض الكتب الدينية[1] .

وقد تصدت المعتزلة للرد على الشعوبية والدفاع عن مبادىء الاسلام ، وكان واصل بن عطاء يعقد الجلسات للرد على الزنادقة وتفنيد حججهم .

---

(١) الجذور التاريخية للشعوبية : ٥٠ .

وكان يناقش مشاهيرهم أمثال صالح بن عبد القدوس وغيره، فقطعهم بأقل كلال . وكان لواصل تلاميذ كثيرون أعدهم إعداداً فكرياً عميقاً ، وكان يبعث بهم إلى الأقطار (يدعون إلى مبادىء الاعتزال ويردون من خلال ذلك على خصوم الاسلام . فبعث واصل منهم عبد الله بن الحارث الى المغرب فأجابه خلق كثير ، وبعث الى خراسان حفص بن سالم فدخل ترمذ وناظر جهم بن صفوان حتى قطعه . وبعث القاسم الى اليمن وبعث أيوب إلى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان الى الكوفة وعثمان الطويل الى أرمينية .[1]

والزمخشري المعتزلي[2] تبنى فكرة الرد على الشعوبية والدفاع عن الاسلام والعرب في مؤلفاته التي سنوردها .

«الزمخشري وكتابه المفصل في صناعة الإعراب»

«تعريف بالكتاب» :

قال الزمخشري مفتخراً بسعة معلوماته في علم النحو :[3]

وبي يستعيذ النحو من أن يسوسه ... نهى لم يجدها الذائقون حصائفا
فقل أين خلّى سيبويه كتابه ... يقل حجر جار الله مأوای حالفا
وما في رواة الكتب راوية له ... سوى واحد فانظر فلست مصارفا
ولو لم تكن لي غير هذي فضيلةٌ ... لبرزت سباق الاضاميم راعفا

وكان يزعم : انه ليس في كتاب سيبويه مسألة إلّا وقد تضمنها هذا الكتاب . ويحكى : ان بعض أهل الأدب ، أنكر عليه هذا القول وذكر له مسألة من كتاب سيبويه وقال : هذه ليست فيه . فقال : وإنها لم تكن فيه أيضاً ، فهي فيه ضمناً ، وبيّن له ذلك .[4]

---

(١) الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية ص ١٧٩ .

(٢) راجع بحثنا هذا ص : ٣ .

(٣) ديوان الادب ، ورقة ١٣٦ مطلع القصيدة :

سقى الله بطن الايك اوطف واكفاً ... يجلل بطن الأيك أزرق وارفا

(٤) نزهة الالباء في طبقات الادباء ص : ٢٩٠ .

شرع الزمخشري في تأليف كتاب المفصل في غرّة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وفرغ منه في غرّة المحرم سنة خمس عشرة وخمسمائة .

ولا ريب أن يبلغ الكتاب مكانة عالية ، فقد شرحه وعلق عليه كثير من النحاة ، ذكر بروكلمان : ان له تسعاً وعشرين شرحاً .

وأول طبعة له في كريستيانا (christianiae) سنة ١٨٥٩م باعتناء J.P. Broch كما ترجم الى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ .

ولعل أكثر شراح المفصل شهرة أبا البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلبي (٥٥٣هـ/١١٥٨م - ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وقد طبع في ليبسك سنة ١٨٨٢م . كما طبع المفصل وبعض شروحه عدة طبعات في مصر .

ومما قيل في كتاب المفصل :[1]

«مفصل» جار الله في الحسن غاية والفاظه فيها كدرّ مفصّل
ولولا التقى ، قلت : المفصل معجز كآي طوال من طوال المفصّل

وقال الدكتور علي عبد الواحد :[2]

«ان جماعة المتأخرين جاؤوا بمذهبهم في الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم ، فوضعوا أهَمَّ كتب النحو والصرف وأكملها وأدقها وأكثرها تهذيبا وتنقيحا ، ومن أشهرهم الزمخشري صاحب المفصّل في النحو» .

«الزمخشري والشعوبية في كتابه المفصّل» :

بدأ الزمخشري مقدمة كتابه المفصّل بأن حمد الله وأثنى عليه على أن جعله من علماء العربية وعصمه من الشعوبية ، قال[3] :

---

(١) كشف الظنون ٢/١٧٧٤ .
(٢) فقه اللغة : ص ٢٦٩ .
(٣) مقدمة كتاب المفصل .

«الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وأنضوى الى لفيف الشعوبية وانحاز ، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم الا الرشق بالسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين ، والى أفضل السابقين والمصلين أوجه أفضل صلوات المصلين محمد المحفوف من بني عدنان بجماجمها وأرحائها النازل من قريش في سرة بطحائها ، المبعوث الى الأسود والاحمر بالكتاب العربي المنور ولآله الطيبين ادعو الله بالرضوان وادعوه على أهل الشقاق لهم والعدوان» .

ثم يرد على الشعوبية قائلا بأن الله جعل خيرة كتبه القرآن الكريم ونبيه في عرب خلقه وليس في عجم خلقه :

«ولعل الذين يغضّون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيغا عن سواء المنهج» .

ثم يقول ان اللغة العربية أم اللغات ويحتاجها صاحب العلوم الاسلامية . وهذه العلوم محتاجة الى علم الاعراب :

«والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم وذلك انهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها واخبارها إلّا وافتقاره الى العربية بيّن لا يدفع ومكشوف لا يتقنع ، ويرون الكلام في معظم ابواب أصول الفقه ومسائلها مبنيا على علم الاعراب» . والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والاخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين . . والاستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم والتشبث بأهداب فسرهم وتأويلهم . وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم ، وتدريسهم ، ومناظراتهم ، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم ، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم ، فهم ملتبسون بالعربية اية سلكوا ، غير منفكين منها أينما وجهوا كل عليها حيث سيروا» .

وعلى الرغم من أهمية اللغة العربية ، فالشعوبيون يجحدون فضلها وينهون عن تعليمها وتعلمها :

«ثم انهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ويدفنون خصلها ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزقون اديمها ، ويمضغون لحمها . فهم في ذلك على المثل السائر : «الشعير يؤكل ويذم» . ويدعون الاستغناء عنها وانهم ليسوا في شق منها ، فان صح ذلك فما بالهم لا يطلقون اللغة رأسا والاعراب ، ولا يقطعون بينها وبينهم الاسباب ، فيطمسوا من تفسير القرآن آثارها ، وينفضوا من أصول الفقه غبارهما ، ولا يتكلموا في الاستثناء فانه نحو ، وفي الفرق بين المعرف والمنكر فانه نحو ، وفي التعريفين تعريف الجنس وتعريف العهد فانهما نحو ، وفي الحروف كالواو والفاء وثم ولام الملك ومن التبعيض ونظائرها ، وفي الحذف والاضمار ، وفي أبواب الاختصار والتكرار ، وفي التطليق بالمصدر واسم الفاعل ، وفي الفرق بين إن وأنّ واذا ومتى وكلما وأشباهها مما يطول ذكرها ، فان ذلك كله من النحو . وهلا سفهوا رأي محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله فيما أودع كتاب الايمان ، ومالهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلق المناظرة ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالا وابهة ، وهل أصبحت الخاصة بالعامة مشبهة ، وهل انقلبوا هزأة للساخرين وضحكة للناظرين» .

ثم يبين الزمخشري أهمية علم الاعراب قائلاً :

«هذا وان الاعراب أجدى من تفاريق العصا ، وآثاره الحسنة عديد الحصا ، ومن لم يتق الله في تنزيله ، فاجترأ على تعاطي تأويله ، وهو غير معرب ، ركب عمياء ، وخبط خبط عشواء ، وقال ما هو تَقوُّلٌ وافتراء وهراء ، وكلام الله منه براء ، وهو المرقاة المنصوبة الى علم البيان ، المطلع على نكت نظم القرآن ، الكافل بابراز محاسنه ، الموكل باثارة معادنه ، فالصادّ عنه كالسادّ لطرق الخير كيلا تسلك والمريد بموارده ان تصاف وتترك» .

ويبين الزمخشري الحافز الذي دفعه لتأليف كتاب المفصل :

«ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب الى معرفة كلام العرب ، وما بي من الشفقة والحدب على أشياعي من حفدة الأدب ، لانشاء كتاب في الاعراب ، محيط بكافة الأبواب ، مرتبا ترتيبا يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعي ، ويملأ سجالهم بأهون السقي» .

ثم يبين الزمخشري منهجه في تأليف كتاب المفصّل :

«فانشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصّل في صنعة الاعراب مقسوما أربعة أقسام . القسم الأول : في الاسماء . القسم الثاني : في الافعال . القسم الثالث : في الحروف . القسم الرابع : في المشترك . وصنفت كلا من هذه الأقسام تصنيفا ، وفصلت كل صنف منها تفصيلا حتى رجع كل شيء في نصابه ، واستقر في مركزه ، ولم أدخر فيما جمعت فيه من الفوائد المتكاثرة ، ونظمت من الفوائد المتناثرة ، مع الايجاز غير المخل ، والتلخيص غير الممل مناصحة لمقتبسيه» .

ثم يوضح : على القارىء :

أرجو أن اجتني منها ثمرتي دعاء يستجاب ، وثناء يستطاب ، والله عزّ سلطانه ولي المعونة على كل خير والتأييد والملي بالتوفيق فيه والتسديد» .

الزمخشري وكتاب مقدمة الأدب :

تعريف بالكتاب :

ألف الزمخشري مقدمة الأدب لتعليم الفرس اللسان العربي ، وزودها بشروح باللغة الفارسية ، وأهداها الى الأمير بهاء الدين أبي المظفر أتسوز بن خوارزم شاه .

طبع الكتاب وتزستاين I.G. Wetzstain في مجلدين سنة ١٨٤٣ في ليسك بعنوان : Lexicon Arabicum Persicum

وطبع الكتاب في طهران باهتمام سيد محمد كاظم امام سنة ١٩٦٣ . كما ترجمه الى التركية اسحاق افندي أحمد بن خير الدين (المتوفى سنة ١١٢٠ هـ) وسمّاه (أقصى الارب في ترجمة مقدمة الأدب) .

«الزمخشري والشعوبية في كتاب مقدمة الأدب» :

بدأ الزمخشري مقدمة كتابه «مقدمة الأدب» بأن حمد الله وأثنى عليه وذلك بتفضيله اللغة العربية على جميع اللغات كما فضل القرآن الكريم على جميع الكتب ، قال :

«الحمد لله الذي فضّل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضّل الكتاب المنزل به على سائر الكتب والصلاة على النبي الأمي العربي ، وعلى آله أشرف العرب بعد النبي» .

ثم مدح الملوك الذين أغدقوا عطاياهم وهباتهم على علماء الملة الاسلامية وعلى الشعراء والخطباء :

«ولجلالة هذا اللسان وما جعل الله له من نباهة الشان ، وان الحاجة اليه سانحة في الملة الاسلامية في أنواع علومها وفنون آدابها كان المتعاطون لاتقانه والتبحر فيه معدودين في علماء هذه الأمة مذكورين في طبقات الأئمة ، ومن صنع الله تعالى لهذه الطبقة أن الملوك لم تمطر سحائبهم ، ولا فاضت أعطياتهم ومواهبهم على أحد فيضها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ومترسليهم وشعرائهم . ولم يخل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الاعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويصطفيهم ويكفلهم ويكفيهم ، ويتعصب لصناعتهم ، ويحرص على تنفيق بضاعتهم» .

ثم يعظم الزمخشري ويفخم الامير أبا المظفر اتسوز بن خوارزم شاه لانه اهتم باللغة العربية وبالعلوم الاسلامية وذلك لطلبه من الزمخشري أن يؤلف كتابا لتعليم الفرس اللغة العربية ، قال :

«والذي اصطفاه في زماننا لنصرة الأدب ، وقذف في قلبه الرغبة في كلام العرب الأمير الأجل الاسفهسالار بها الدين علاء الدولة نجم الملوك والسلاطين أبو المظفر اتسوز بن خوارزم شاه أدام الله علاه ، ونصر لواءه ، فغاية لذته في مجالسة الأفاضل وقصارى لهوه في منادمة الاماثل ، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجنابهم بانعامه الفائض مجودا ، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية ، رائحة اليهم غادية ، وقد رسم لي أمره

العالي زيد علوا بتحرير نسخة من كتاب «مقدمة الأدب» لخزانة كتبه المعمورة فعملت على امتثال رسمه ، وجعلت الكتاب موسوما باسمه لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولا في القلوب ، وهبّ في البلاد مهب الصبا والجنوب ، فاردت أن لا يزال مذكورا في كل مكان وزمان ، ويكون اسمه العزيز جاريا على كل لسان ، والله موفقه لما يرفع الذكر الجميل ويكسب الثواب الجزيل انه خير موفق ومعين» .

الزمخشري وكتاب ديوان الأدب :

- تعريف بالكتاب :

للزمخشري ديوان ضخم جمعه بنفسه ورتبه على تسلسل الحروف الهجائية وذلك بطلب من أبي الحسن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس وأهداه اليه ، قال[1] :

« . . . للقيت مني حين اقترحت عليّ جمع نفائات قريحتي ، وطلبت اليّ الاسجاع بمحاجاة سجيتي . . . وما هي الا اقدامة منهوك ، واقتحامة متفتك ، واغترار باستجادتك ، واستنامة الى استعادتك ، وركوب الى قولك في كثير منها هو بكلام القدماء أشبه من الماء بالماء ، قضاؤك للبنوات باصابة المخر ، واقبالك على المكبات بالمنكب المهتز ، والحاقك العربيّة بحولي العرب المنقح ، وتشبيهك أبياتها بالعراب القرح ، وشهادتك الحكيمة بما أمال من عطفها ، ونفخ في قحفها ، واعجابك بأخوات لهن من مقصرات ومقطعات ، ولعلك السبب فيما أريد بها من التشهير ، وأتيح لها التيسير ، والله المستعان» .

وقد افتخر الزمخشري وتباهى بشعره قائلاً[2] :

---

(١) مقدمة ديوان الادب .

(٢) ديوان الادب ورقة ٧٠ مطلع القصيدة :

سقى الله بطن الايك اوطف واكفا يجلل بطن الأيك أزرق ذارفا

أقرت بي الآداب أصلا لها ومن رأى مشرفيات جحدن مشارفا
وديوان منظومي يريك بدائعا وديوان منثوري يريك مطارفا

وقال أيضاً :[1]

ومما شجاني أن غرّ مناقبي يغني بها الركبان بين القوافل
وطارت الى اقصى البلاد قصائدي وسارت مسير النيرات رسائلي

الزمخشري والشعوبية في ديوان الأدب :

قال باكياً الاطلال[2] :

أيا عرصات الحي أين الأوانس رحلن وحلتك الظباء الكوانس
أعامرة بالامس تهتز نظرة مغانيك وهو اليوم قفر بسابس
بليت بشيء لم أك قبلي به فرسمك منه مثل رسمي دارس*
جفتك وكانت من مهى الانس ربربا نواشيء في برد الشباب موائس
مهى لفتاة المسك في كل ملعب بتجرير اذيال المراط كوانس
فعوضت من تلك الكوانس غيرها كوانس ما دالت لهن ملابس
وما اركس القلب المعذب بعدما سلا سلوة الا العذيب وراكس
محلان للحي الجميع كلاهما محيق كما يمحو الصفيحة طامس
توالى بكاء فيهما وتنفسا رواحس يخضلن الربى وروامس
لبذلهم ما هبت الشمأل القرى وسقيهم الصهباء والماء قارس
لعهدي بهم والدهر مفض جنونه وصرف النوى عن صدعة الشمس آيس

ثم ينتقل الى مدح العرب والفخر بهم :

تنافسهم في الغر كل قبيلة وأبى عليهم عزهم أن ينافسوا
اذا جلسوا حول الرياض بهيجة فأبهج من تلك الرياض المجالس

---

(١) المصدر السابق ورقة ٩٢ ، والبيتان من قصيدة مطلعها :
خليلي هل تجدي عليّ فضائلي اذا أنا لم ارفع على كل جاهل
(٢) ديوان الادب ورقة ٦٠ .
(*) وردت بعض الأبيات في هذا البحث مختلّة الوزن ، وبعض الكلمات غير واضحة المعاني ، ولعل ذلك ان يكون في الأصل .

عن العرب الصيد الاولى احرزوا العلى ... وطابت لهم أعراقهم والمغارس
غطارفة شم تربوا أعزّة ... فما شم ريح الذل منهم معاطس
وللعرب العرباء أصلب منبت ... وهل يستطيع الخز في النبع ضارس
فيا لغة لو يشعر الصخر بالذي ... تمارس ضج الصخر مما تمارس
إباء إباء الخيل وهي شوامس ... وصبر كصبر الخيل وهي هوامس
وما نال منهم في الهزاهز كلها ... فوارس هيجا أم ليوث فوارس
مساعر ما يحمي الوطيس بمثلهم ... اذا فرّ عن حرّ القراع المغامس
فكم طعنة بكر يطير رشاشها ... لفتيانهم والحرب شمطاء عانس
ويكفيك من أيامهم وحروبهم ... بما جرت الغبراء أو جرّ داحس

ثم يذكر انتصارات العرب على فارس وسلب تيجان الملوك :

وهم فرسوا أبناء فارس كلهم ... بانيابهم وهي الرماح المذاعس
ومصلتة ما زال يطلى بياضها ... بماء الطلى ما فارقتها المداوس
وهم سلبوا التيجان هام ملوكهم ... ولم يقطعوا عنهم وفارس فارس
وأي سخاء يدّعى كسخائهم ... بما ملكوا والجو أغبر عابس
بأسيافهم يمرون سوق عشارهم ... اذا نزل الأضياف والضرع يابس
وان تستعد منهم بأعظم ميت ... فذلك حصن مانع لك حارس
اذا اعتقلت كفاك فيهم بذمة ... فخصمك فل ناكص عنك ناكس
واعراضهم اعراقهم وكلت بها ... مهينمة حتى اتقتها المدانس
وعن صهر كسرى صد نعمان باوه ... فخنقه في خانقين الفوارس
وهان عليه يومه قبل ساعة ... يكابد فيها صهر من لا يجانس

ثم يوضح روعة اللغة العربية وانتشارها في الامصار ، وأن الرسول عربي والقرآن نزل باللغة العربية :

وقل هل فشا في الأرض غير لسانهم ... لسان فُشُوَّ الضوء واليوم شامس
به عجّ في امصارها كل منبر ... وطنت به في الخافقين المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمة ... تناسبهم في خصلة أو تلابس
يقايس بين الناس حتى اذا انتهى ... الى العرب القياس طاح المقايس
وواحدة تكفيك هاتيك حجة ... بساطعها تنشق عنك الحنادس

أجــلُّ رســولٍ منهم وبلسنهم أجل كتاب فاعتبر يا منافس
وقـل للشعوبيـين ان حديثكم أضاليل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فسل يغـر بمثله أشاييب حمقى لا الرجال الاكايس

قال من قصيدة أخرى مادحا الرسول الأعظم ومشيدا بصفاته الغر حيث جاء بالحنيفية البيضاء ومعجزته كتاب الله فتابعه سعيد ومن زاغ عنه فهو الهالك . وقد استطاع الرسول (ص) أن يطوح تاج كسرى وقيصر والممالك الأخرى ، فقال[1] :

ادار الأولى حلوك أين أولئك أراك محـلا لـلظبـاء الأوارك
ومـا أحد صـلّى عليه محمـد بذي عصم عند الآله ركائك
أبو القاسم ابن الأنبياء محمد رسول الهدى الهادي اسد المسالك
فأسعد أهل الأرض تابع خطوه ومن زاغ عنه هالك في الهوالك
الى الثقلين المصطفى كان مرسلاً من المتعـالى جـده المتبـارك
ولمـا أتـاهم بـالحنيفيـة التي هي الصبح حلى كل اسود حالك
بملة ابـراهيـم أثبـت مـلة وارسخها قبل الجبال الروامك
أتاهم بآيات الكتاب فاصبحت بوازغ في الأفاق غير دوالك
يداهم باشباه السيوف بوابكا فصدوا فثنى بالسيوف التوابك
ببيض خطمن الغر عن كل حاطم وسمر هتكن الستر من كل هاتك
وطوحن قصراً تاج كسرى وقيصر وسمن صغاراً شوس أهل الممالك
وكم من دماء حيل من دون حتفها حقن بـأيـد للدمـاء سـوافـك
وذو العرش ألقى في قلوب غواتهم من الرعب ما يثنيهم بالممالـك
فكائن رأوا من ذي ممالك كبكبت ممالك منه جنده في مهالك
وشردنهم في كل أوب تواركا صناديدهم مثل النعام الروائك

(١) ديوان الأدب ورقة ٩٠ .

ثم قال مفتخراً بنسب الرسول بانه ينتمي الى قريش ذات المنصب العزيز وأنه من عدنان ، ومدح الصحابة التي التفت حول الرسول ودافعت عنه دفاع الأبطال :

اعـز قريش منصبـاً واخصهم ... بفرع سنام بين عدنان تافك
أبـوّتـه أعلتـه ثم ارتقت بـه ... نبوته في البـاذخات السـوامك
وذلـك يجزيه من ان يعتري الى ... فـواطم من جداتـه وعـواتـك
وما كان الاّ البدر تحتفي حوله ... صحابة صدق كالنجوم الثوابك
هم كشفوا عن وجهه كرب الورى ... كفاحاً وخاضوا دونه في المعارك
وقاموا بضرب للطلى متتابع ... وزادوا بطعن في الكلى متدارك
الى أن دجى الاسلام وامتد ظله ... وعضّ على أبهامه كل آفك
فارسلت الأديان سحا عيونها ... وأوضح دين الحق أنياب ضاحك
اليك رسول الله جهرّت مدحتي ... وأنك اسخى كل باق وهالك

* * *

الزمخشري وكتاب الكلم النوابغ :

هي مجموعة حكم ونصائح مركزة موجزة مسجوعة سجعاً ملتزماً لا ينتظمها موضوع أو فكرة وإنما في شتى مجالات الحياة في الاخلاق والسياسة والاقتصاد والدين والاجتماع ، طبع الكتاب المستشرق الهولندي هنري البرت سجلتن « Henriecus Albertus Sehultens » في سنة ١٧٧٢م مع ترجمة الى اللاتينية بعنوان « Antholagia Sententiaram Arabicarux » وفي سنة ١٨٧٥م طبع الكتاب المستشرق الفرنسي « C . Barbier de Meynard » مع ترجمة الى الفرنسية ونشرها في مجلة« Journal Asiatique» بعنوان :

«Les Pensées De Zamakhscharï».

وفي سنة ١٣٠٦ هـ طبع الكتاب محمد الكستي البيروتي في بيروت .

وفي سنة ١٩٧١ م حققت الكتاب ونشرته الدكتورة بهيجة باقر الحسني في مجلة العرب في الجزء التاسع والعاشر . قال فيه السيد حبيب الدراجي التونسي[١] :

روض البلاغة قد تفتح زهره وجرى بتسنيم الفصاحة نهره
أو ما ترى «الكلم النوابغ» قد بدت تزرى بعقد لايثمن قدره
من نسج جار الله استاذ الورى المعتلى بين البرية قدره
يا زمرة الأدباء بشراكم بما قد همّ طلّاب المعارف نشره

وللكتاب شروح كثيرة أشهرها شرح العلامة سعد الدين التفتازاني وسماه بـ «النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ» .

طبع في وادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هجرية

قال فيه الزمخشري معظماً العرب ومفضلاً اياهم على العجم :[٢]

«العرب نبع صلب المعاجم والغرب مثل الاعاجم»

فسّرها التفتازاني[٣] :

«ان العرب فصحاء أعزاء أقوياء دون الاعاجم» .

وقال الزمخشري أيضاً شامخاً بالعرب[٤] :

«فرقك بين الرطب والعجم هو الفرق بين العرب والعجم»

وقال مادحا الاسلام[٥] :

«الدخول في دارة الاسلام خلود في دار السلام»

---

(١) الابيات في الصفحة الاخيرة من كتاب «الكلم النوابغ» طبعة بيروت .
(٢) الكلم النوابغ : رقم ٢٨ .
(٣) النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ صفحة ١٥ .
(٤) الكلم النوابغ : رقم ٢٢٠ .
(٥) المصدر نفسه رقم ١٤٢ .

وقال[1] :

«آمن بالامين«ابن آمنة» تأت يوم الفزع بنفس آمنة»

وهكذا تصدى الزمخشري للشعوبية في مؤلفاته هذه فمدح الاسلام والرسول العربي والعرب ، وذم الفرس والشعوبين .

(١) المصدر نفسه رقم ١٥٦ .

المصادر والمراجع

١ ـ الاعلام ـ للزركلي . الطبعة الثالثة بـ «الاوفست» بيروت سنة ١٣٨٩هـ/١٩١٠م .

٢ ـ الاخبار الطوال ـ الدينوري ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، مطبعة عيسى بابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

٣ ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ـ المعروف بمعجم الادباء ، تحقيق : مرجليوث القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٣١ .

٤ ـ ازهار الرياض في اخبار عياض ـ المقرى ١٣٥٨هـ ـ ١٣٦١هجرية .

٥ ـ انباه الرواة على انباه النحاة ـ القفطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٤/١٩٥٥ .

٦ ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ـ اسماعيل باشا البغدادي ، طهران سنة ١٩٦٧ .

٧ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٤ ، مطبعة آولى سنة ١٣٢٦ هجرية .

٨ ـ البيان والتبيين ـ للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ١٣٦٧/١٩٤٨ .
٩ ـ تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣١م .
١٠ ـ تلبيس ابليس أو نقد العلم والعلماء ـ الطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٧ هجرية .
١١ ـ تذكرة الحفاظ ـ للذهبي ، طبع في حيدر آباد ـ الدكن ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤هـ .
١٢ ـ الجذور التاريخية للشعوبية ـ للدكتور عبد العزيز الدوري ، منشورات دار الطليعة بيروت ١٩٦٢م .
١٣ ـ جريدة العراق ـ الاحد ، ١٨ كانون الثاني ١٩٨٧ .
١٤ ـ ديوان الادب ـ للزمخشري ، مخطوط مصور في المجمع العلمي العراقي .
١٥ ـ ديوان بشار بن برد ـ شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور .
١٦ ـ ديوان أبي نواس ـ تحقيق أحمد عبد الحميد الغزالي ، القاهرة ١٩٥٣ .
١٧ ـ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ـ محمد باقر الخوانساري .
١٨ ـ الشعوبية حركة مضادة للاسلام والأمة العربية ـ للدكتور عبد الله سلوم من منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، الجمهورية العراقية ١٩٨٠ .
١٩ ـ الشعوبية ـ الدجيلي ـ الطبعة الثانية النجف ١٩٦٠ .
٢٠ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ـ لابي الفداء ، طبعة القاهرة ١٣٥٠ هجرية .
٢١ ـ الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٤ .

٢٢ ـ الصراع بين العرب والموالي ـ لبديع شريف ، دار الكاتب العربي ، القاهرة سنة ١٩٥٤ .
٢٣ ـ ضحى الاسلام ـ لاحمد امين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٣٧٥هـ .
٢٤ ـ طبقات المفسرين ـ للسيوطي ، تحقيق : فشر ، طبع في ليدن ١٨٣٩ .
٢٥ ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربّه ، تحقيق : احمد امين ، القاهرة ١٩٤٠ .
٢٦ ـ الفائق في غريب الحديث ـ لجار الله الزمخشري ، طبع في حيدر آباد ـ الدكن سنة ١٣٢٤هـ ، وطبع في القاهرة سنة ١٣٦٦/١٩٤٧ .
٢٧ ـ الفهرست ـ لابن النديم ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة بدون تاريخ .
٢٨ ـ الفرج بعد الشدة ـ للتنوخي .
٢٩ ـ القصيدة البعوضية ـ للدكتورة بهيجة الحسني ، مجلة الأستاذ ١٩٦٧ .
٣٠ ـ الكامل في التاريخ ـ لابن الاثير . طبع في مصر سنة ١٣٠٣هـ .
٣١ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ حاجي خليفة ، طهران سنة ١٩٦٧ .
٣٢ ـ اللباب في تهذيب الانساب ـ لابن الاثير ، طبع في مصر ١٣٥٦ ـ ١٣٦٩ .
٣٣ ـ مجلة العرب ـ المملكة العربية السعودية ، الرياض لسنة ١٩٧١ .
٣٤ ـ المحاجاة بالمسائل النحوية ـ للزمخشري ، تحقيق الدكتورة بهيجة باقر الحسني مطبعة أسعد ببغداد سنة ١٣٩٣/١٩٧٣ .
٣٥ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ، طبعة اولى ١٣٢٣/١٩٠٦ .
٣٦ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ـ لطاش كبرى زادة ـ طبع في حيدر آباد ـ الدكن سنة ١٣٢٩هـ .

٣٧ ـ مقدمة الادب ـ للزمخشري ، تحقيق سيد محمد كاظم امام ، طهران سنة ١٩٦٣م .
٣٨ ـ المفصّل ـ للزمخشري وبهامشه «الفيصل بشرح المفصل» طبع بمطبعة الحجازي بالقاهرة .
٣٩ ـ الملل والنحل ـ للشهرستاني ، المطبعة الادبية ، القاهرة ١٣٢٠ .
٤٠ ـ نزهة الالباء في طبقات الادباء ـ لابن الانباري ، تحقيق : الدكتور ابراهيم السامرائي ، الطبقة الثانية ١٩٧٠ .
٤١ ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ـ لاسماعيل باشا البغدادي طبع باستانبول ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ .
٤٢ ـ وفيات الاعيان ـ لابن خلكان ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٦٧/١٩٤٨ .

* * * * * *